الاستماع من منظور الكتابة ولسانيات المنطوق

د. عبد السلام السيد حامد
جامعة قطر
abdulsalamh@qu.edu.qa

تاريخ الاستلام: 2017/8/5

تاريخ القبـــول: 2017/9/20

الملخص :

الاستماع جانب عملي مهم من جوانب اللغة، ودراسته منفردًا في اللسانيات المعاصرة – مع ذلك – تكاد تكون غائبة، إلا من الجانب المهاري وأثره في مسألة تعليم اللغة واكتسابها، والجانب الإدراكي في علم الأصوات بوصفه الحلقة الأخيرة في انتقال الكلام من المتكلم إلى السامع.

وحدود دراسة هذا الموضوع – بناء على ذلك وفي غير ما سبق - يمكن تصورها في جوانب محددة أهمها: الاستماع من منظور الكتابة معرفيًا ونظريًا، ومن المنظور الصوتي الموسّع، ومن جوانب لسانيات التواصل، والتلفّظ، والنص والخطاب. ولضيق المقام هنا يُقتصر على الجانبين الأولين فقط.

في الجانب الأول نشير إلى الصور المختلفة للغة بين كونها سمعية أو بصرية أو إشارية، وإلى رأي دي سوسير في اللغة المنطوقة والمكتوبة وما كان له من صدى وأثر لدى كثيرين خاصة جاك دريدا ورولان بارت، مع بيان علاقة ذلك كله بالاستماع.

وفي الجانـب الثـاني نشير إلى الجانب الإدراكي للسمع، ونتجاوزه إلى مفاهيـم وجوانب أرحب من أهمها الاتكاء على عـرض القضية صوتيًا من خلال ما قدمه عـالم الأصوات ديفيد أبركرومبي (David Abercrombie) خاصة مفهوم الـوسط السمعي بجانبيه: الخصائص الإشارية والخصائص الجماليـة التي تتعلق بظواهر تفضي إلى ما يُسمى بالمعالم التطريزية، التي هي الإطار الأوسع لهذه المسألة في علم الأصوات بشكل عام.

الكلمات المفاتيح:

الاستماع – نظرية الكتابة - علم الأصوات – الوسط السمعي – الخصائص الإشارية – الخصائص الجمالية.

Listening from the perspective of writing and the spoken linguistics

Dr. Abdelsalam Hamed

Qatar University

abdulsalamh@qu.edu.qa

Abstract

Listening is an important aspect of the language, and its study of contemporary linguistics is alone - however – and it is almost absent, except from the skillful side and its impact on the question of language teaching and acquisition, and the cognitive aspect of phonology as the last episode in the transmission of speech from the speaker to the listener.

The limits of the study of this subject - therefore and beyond - can be conceptualized in specific aspects, the most important of which are: Listening from the perspective of writing, both theoretically and knowledgably, from the expanded voice perspective, and from the aspects of communication linguistics, pronunciation, text and discourse. The narrowness here is limited to the first two sides only.

On the first side, we refer to the different images of the language, whether audiovisual or visual, to the de Susser's opinion of spoken and written language, and the resonance and impact of many linguists, especially Jacques Derrida and Roland Barthes.

On the other side, we refer to the cognitive aspect of Listening, and move on to concepts and other aspects, the most important of which is to rely on the presentation of the case in a voice through the contributions of the phonetics scientist Abercrombie, especially the concept of «the aural medium» by its side: the properties of the indexical features and aesthetic properties related to phenomena leading to the so-called supersegmental features that are the broader framework of this issue in phonology in general.

Keywords:

Listening – theory of writing – phonetics – aural medium - indexical features – aesthetic properties.

مقدمة:

تناولتُ في بحث تمهيدي سابق أثر الاستماع في تعليم العربية، وتبين لي أنه يمكن تأسيس نظرية في هذا الشأن تنطلق من خصائص تراث أمتنا المتنوع ومخزونها ورصيدها، وما أضيفَ إلى ذلك في عصرنا الحديث من نظريات وتقنيات وإمكانات.

وقد كان من الخطوات الأولى اللازمة لذلك مداخل عامة تحدثت فيها عن «الاستماع» من حيث: المفهوم والمصطلح، وتوسيع إطار القضية من خلال الإشارة إلى أصول الاستماع العربية (الأصوات والأصول النصية والأصول المعرفية والعلمية)، وصور الاستماع ومهاراته، واستثمار الفكرة منهجيًا وتطبيقيا على دراسة المدونة السمعية وتوظيفها في تعليم العربية، طبقًا لإطار اقتراح محدد[1].

إن الاستماع جانب مهم عملي من جوانب اللغة نعيش معه ونمارسه في كل كلام ننطقه ونستقبله لأنه أحد وجهي هذا الكلام، والله جعل لنا أذنين وجعل لنا لسانًا واحدًا، وليس من المبالغة في شيء أننا نسمع أكثر مما نتكلم؛ فهذه حقيقة علمية، وأمر واقعي مسلم به، وكل هذا يدركه عامة الناس، ويقر به الباحث في حقل دراسة اللغة واللسانيات، ومع ذلك فالاستماع –منفردًا– غائب عن الدراسة الكلية في البحث اللساني المعاصر، ويحتاج الباحث إلى أن ينظر بمجهر خاص؛ كي يرى معالجة الباحثين واللسانيات له كيف تكون وأين مواضعها من المباحث والنظريات والقضايا، ثم يعمل فيها رأيه وفكره كي يجيب عن أسئلة من قبيل: كيف يكون استماعنا من الناحية العملية؟ وما صوره؟ ومتى يكون؟ وما أدلة أهميته؟ وما الأدوار التي يقوم بها؟ ومن الأطراف المشاركون فيه؟ وكيف يتمّم مع الكلام دائرة التواصل؟ وما الأنماط اللغوية أو الثقافية المقابلة له؟ إلى آخر الأسئلة التي يمكن أن تدور في هذا الإطار. وفي البحث السابق إشارات مقتضبات متفرقات لهذا، وهي بالطبع لا تكفي[2]. وعلى هذا الأساس تكون أهمية هذه الدراسة التي لسنا في حاجة إلى أن نستشهد لضرورتها وتأكيد دخولها في دائرة الأبحاث اللسانية الحيوية بمثل قول جاكوبسون: «ويُعنى علم اللغة باللغة في مظاهرها جميعًا؛ اللغة في أثناء العمل، واللغة في طور الانتقال، واللغة في طور الولادة، واللغة في أثناء ذوبانها»[3]؛ لأنه إذا كانت اللغة في أثناء ذوبانها موضوعًا لعناية علم اللغة، فإن ما هو أدنى من ذلك وما هو واقع قبل هذه المنزلة أولى، ومنه الاستماع؛ لأنه هو الوجه الآخر للمنطوق، وأحد وجهي الحدث الكلامي. إذن الهدف العام الأساسي لأية دراسة جديدة في هذا المجال – كما أرى – ينبغي أن يكون: تحديد مفهوم الاستماع في اللسانيات الحديثة، وبيان الغاية من وراء ذلك في المهام التي يمكن أن يحققها توظيف ذلك المفهوم.

والمشهور في دراسة «الاستماع» لغويًا تناوله على مستوى المهارة في قضية تعليم اللغة واكتسابها، وليس هذا ما نقصده هنا، وأما دراسته من الوجهة التي حددناها، فأقرب الإنجازات العلمية المعتبرة المشهورة وأكثرها صلة بهذا – في حدود معرفتي – كتاب أستاذنا الدكتور سعد مصلوح (دراسة السمع والكلام)[4]، وقد صرف العناية فيه إلى دراسة الكلام والسمع من

(1) انظر: الاستماع وأثره في تعليم العربية. مجلة كلية الآداب. جامعة طنطا. العدد 29- يناير 2016م.

(2) كان من الإرهاصات الأولى أيضًا لميلاد فكرة بحثنا هنا (الاستماع في اللسانيات المعاصرة) محاضرة لي في المنتدى البحثي لقسم اللغة العربية من كلية الآداب والعلوم بجامعة قطر بعنوان: «مفهوم الاستماع بين التراث واللسانيات المعاصرة، نحو نظرية عربية للاستماع» وذلك بتاريخ 30/12/2015. وكان نصيب اللسانيات المعاصرة من ذلك إشارات عامة محدودة ورد بعضها في المدخل الخاص بالمفهوم والمصطلح في أول الفصل السابق. والمحاضرة منشورة على اليوتيوب، وهذا رابطها:
https://www.youtube.com/watch?v=7L2Irq6OFaI

(3) أساسيات اللغة. لرومان جاكوبسون وهالة موريس، ترجمة سعيد الغانمي (كلمة، أبو ظبي، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (ط1-2008):107.

(4) عالم الكتب، القاهرة، 1980.

خـلال التعـرف إلى ماهيتهمـا وبيان المراحـل التي يمر بهـا الحدث اللغوي المنطوق منـذ أن يكون فكرة في رأس المتكلـم علـى أن يصبح مفهومًـا لدي السامـع، مع بيان المفاهيـم والمصطلحـات والأشكال التوضيحيـة والأمثلة التحليليـة المعتمـد في بعضهـا علـى الأجهـزة الصوتية الحديثة، وحدود هذه الدراسة المتميزة عن غيرها – كما هـو واضح – الجمـع بين دراسة ظواهر الكلام والسمع، إلى جانـب ضم شتـات مسائلهما واستبانـة علاقاتهما، وذلـك من علـوم فيزيـاء الـصوت والتشريـح ووظائف الأعضاء وعلم النفـس الفيزيائي. وبناء على هذا نقول: إن دراستنـا ووجهتنـا في بحثنا هـذا مختلفة عن دراسة أستاذنا الدكتور سعد للأسباب الآتية:

- الأول: رغم كون السمع جامعًا بين الدراستين، فالوجهة مختلفـة؛ لأن دراسة الدكتـور سعـد جامعـة «للكلام والسمـع»، والعناية بالكلام هي الأكثر، وتقسيم أبواب الكتاب وتوزيع محاوره يؤكدان هذا، وأما دراستنا فهي موجهـة إلى «الاستماع» قلبًا وقالبًـا ولا يأتي الحديث عن «الكلام» إلا بالتبعية.
- الثـاني: «السمع» عنـد الدكتور سعد يقـف عند حدود الإدراك اللغـوي الأوّلي وتمـام وصول رسالـة المتكلم. أمـا في بحثنـا فالسمع يتجاوز جانـب الإدراك إلى ما هو أبعد من ذلك نظريًا واجتماعيًا وثقافيًا حتى يصل إلى مستـوى الخطـاب. ولذلـك كان المصطلـح الذي تبنيناه هو «الاستماع» من أجل دلالته الأوسع المعروفة، مع قدر من التجاوز عند استخدامنا له بالمعنى الضيق (السمع) في مجال الأصوات.
- الثالـث: المنهـج مختلف، فمنهج شيخنـا منهج صوتي تأسيسي جامع لكل ما يتصل بعلم الأصوات العام من فيزياء وتشريح ووظائف أعضاء، أما المنهج لدينا فهو منهج استكشافي تأصيلي يستمد مادته من النظريات اللسانية المختلفة ذات الصلة.

وبنـاء على هذا تكـون الحدود العامـة لبحث مسألة الاستمـاع بهذا المنحى – فيما يبدو وفي غير قضية تعليم اللغة واكتسابها- محصورة في المقام الأول في تناوله من الجوانب الآتية:

1- من منظور الكتابة معرفيًا ونظريًا.

2- من المنظور الصوتي.

3- من منظور التواصل.

4- الاستماع ولسانيات التلفظ.

5- الاستماع ولسانيات النص والخطاب.

ولضيق المقام وطول الفكرة سنختار من هذه الجوانب هنا الجانبـين الأولين فقط: الاستماع من منظور الكتابة معرفيًـا ونظريًـا، ومـن المنظـور الصوتـي أو لسانيـات المنطـوق. على أن نـدع الجوانب الثلاثـة الأخرى لجولة بحثية أخرى مناسبة.

أولًا- الاستمـاع مـن منظـور الكتابـة معرفيًا ونظريًا:

نقـصد بذلـك بيـان شأن الاستمـاع في ضوء نظرية الكتابـة وما يرتبـط بها من المقارنة بينهـا وبين الكلام، وما لذلـك من صلة بتطور نظـرة اللسانيات إلى عنصر الاستماع. وتسلسل المسألة هنا يأتي من ارتباط الاستماع بالمنطـوق، والمنطوق يقابل المكتوب ويُقارَن بينهما كثيرًا، ولذا تُعـدّ المقارنة بين الكتابة والنطق مـن أشهر مسائل نظرية الكتابـة وأدبياتها، ومن قضايا المداخل العامة في اللسانيات. بـل أحيانًا تتسع دائرة المقارنة لتشمل المرئي أيـضًا على هذا النحو: «يثير الـكلام الانتباه، أما المرئي فهو يقتضي الانتباه. أذلك لأن السمع مفتوح دائمًا ومهيّأ للتحريض والإثارة؟ أم لأن السمع سلبيّ أكثر من النظر؟ نستطيـع بشكل طبيعي أن نغمض العيون وأن نلهي النظر بأكثر مما نستطيع الامتناع عن السماع. كان هذا الوضع

الطبيعي في البدء هو وضع الرضيع، يجب ألا ننسى ذلك»[1]. من أجل هذا وُصفت لغة الكلام بأنها لغة سمعية في مقابل اللغة البصرية (لغة الكتابة) واللغة الإشارية أي لغة الإشارة عند الصم أيًا كان نمطها ونوع رمزها. ورغم تحقيق الكتابة والانطباعات البصرية إنجازات قيمة «على مدى ألفي عام على يد الإنسان بحثًا عن لغة تتلاءم واحتياجاته الشخصية، لم تشكل في الماضي أو في الحاضر سوى أداة تكميلية على مسيرة الإدراك السمعي ذات الأهمية التي لا يمكن أن يماري فيها أحد. في حالات الصُّم وأصحاب السمع الثقيل، ترتفع أسهم هذه التكملة البصرية كلما اختفت أو انعدمت البقايا السمعية. وبعض من بهم صمم يصلون إلى حالة من الكمال مدهشة حين يصبح الأمر متعلقًا بترجمة حركة الشفاه الصادرة عن المتكلمين. ولكن مثل هذا الأمر ليس سوى صورة غير طبيعية لاستيعاب شكل لغوي لا يُدرَك إلا عن طريق السماع»[2]. وبناء على هذا لا بد من الإقرار بأن الإعاقة اللغوية عند الأصم تُعدّ أخطر منها عند الأعمى؛ لأن الأمر يقتصر عنده على استبدال أبجدية برايل بالحروف الطبيعية العادية، والاتصال الشفوي لا مساس به. أما الأصم فهو يحاول أن يعوض التواصل الشفوي السمعي المفقود بلغة الإشارة، وأشهر صورها لغة (Ameslan) أو (ASL)، وهي تعد ثالث أشهر لغة غير إنجليزية مستعملة في أمريكا بعد الإسبانية والإيطالية[3].

إن دي سوسير– وهو رائد البنيوية وأبو اللسانيات المعاصرة– نظر إلى الكتابة بارتياب، ورأى أنها – وإن استُخدمت لتمثيل المنطوق – فهي لا تمت إلى النظام الداخلي للغة بصلة وتطمس المعالم الحقيقية لها؛ ولهذا فضل مادة الكلام أو اللغة الشفهية عليها، وقال إن الأسلوب الأمثل لدراسة اللغات الحية هو وضْع نظام للأصوات يحصل عليه الباحث من الملاحظة المباشرة للكلمة المنطوقة [4]، ومن أجل هذا وُجدت الكتابة الصوتية. وفي رأينا أن الملاحظة المباشرة للكلمة المنطوقة لا يمكن أن تنفصل بحال عن مفهوم السمع. هذه ملحوظة أولية أساسية لا بد أن تُسجل هنا في معالجتنا للموضوع.

لقد كانت هذه النظرة الإقصائية للكتابة من دي سوسير وغيره محل سجال أخذ بعدًا معرفيًا وفلسفيًا ممن أتوا بعده، وممن استنفرهم هذا منظّر علم الكتابة جاك دريدا (1930–2004م) في كتابه الذي يحمل هذا العنوان. لقد جادل دي سوسير في آرائه السلبية عن الكتابة التي عدّها أشبه بالزيّ التنكّري، كما حاجج جان جاك روسو في رسالته عن أصل اللغات، حيث قال إن الإنصات ينبغي أن يكون إلى صوت الطبيعة وحده. وعمّم دريدا الحجاج ليشمل النظرة التاريخية الفلسفية العامة التي سادت أوروبا، وكانت تفضل النطق والصوت وتعدهما الحضور والقوة والحرية وتختزل الوجود فيهما[5]، بل إنه رأى أن قيمة اختلاف العلامات التي أعلى من شأنها دي سوسير، يمكن أن تُطبّق على الكتابة ويُكتشف من خلالها تميّزها وأهميتها، مدّعيًا بأن كون

(1) في علم الكتابة، لجاك دريدا، ترجمة وتقديم أنور مغيث ومنى طلبة (المركز القومي للترجمة – القاهرة – ط2 - 2008) 433.

(2) انظر: مدخل إلى اللسانيات، تأليف برتيل مالبرج، ترجمة السيد عبد الظاهر (المركز القومي للترجمة – القاهرة – ط 1- 2010) 38.

(3) انظر: السابق 98 ،97، ومعرفة اللغة، تأليف جورج يول، ترجمة د. محمود فراج عبد الحميد (دار الوفاء لدنيا لطباعة والنشر – الإسكندرية – 1999) 502.

(4) انظر: علم اللغة العام، لفردينان دي سوسير، ترجمة الدكتور يوئيل عزيز (دار الكتب للطباعة والنشر – جامعة الموصل – 1988)42- 55، وانظر أيضًا: النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، لماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، ترجمة محمد الراضي (المنظمة العربية للترجمة – بيروت – ط1 – 2012) 115. وليس معنى ما نقلناه عدم وجود نظرة سلبية للكلام لدى دي سوسير؛ لأن هذه النظرة قائمة في تفريقه المشهور بين اللغة والكلام؛ إذ جعل اللغة – وهي المخزون اللغوي في الذهن الجمعي - هي صاحبة المزايا التي تجعلها هي الأصل والمُتوجّه إليه في الدراسة اللسانية. انظر: علم اللغة العام 32 ،33.

(5) انظر: في علم الكتابة لجاك دريدا 324.

الكتابة الصوتية دقيقة وصوتية تمامًا، وأن الكلام سمعيّ بأكمله قول في موضع شك من وجوه كثيرة [1].

ولأن قضية الكتاب الأساسية هي «الكتابة» وما تثيره من تأملات حول حاسة البصر التي تتفاعل معها، نجد فيه نصوصًا مهمة كثيرة لا تكاد تحصى تصلح شواهد لقضيتنا هنا، أي «الاستماع» وما يرتبط به من نطق وكلام وحاسة؛ وذلك لأن المقارنة منعقدة فيه دائمًا بين هذين الطرفين. وسنكتفي بهذه الأمثلة:

(أ) فعن ضرورة عدم إقصاء لغة الكتابة يقول: «ينبغي على علم الصوتيات أن يتخلى عن كل تمييز جذري بين الكلام والكتابة؛ فيتخلّى بذلك لا عن نفسه بوصفه علمًا، ولكن عن نزعة تمييز الصوت... وما يقرّ به جاكوبسون بهذا الخصوص يهمنا كثيرًا في هذا المقام: فيض اللغة المتكلَّمة، المستمرّ فيزيائيًا يؤدي في الأصل إلى مواجهة بين نظرية الاتصال ووضع بالغ التعقيد ... وليس الحال كذلك مع العناصر الخفيّة التي تقدمها اللغة المكتوبة»[2].

(ب) وتحت عنوان «مدخل إلى عصر روسو»، ذكر النقل الآتي عن التقابل بين الكلام والسمع، والتقابل بين الكلام (الأصوات) والبصر: «لنا عضو يجيب على السمع (هكذا) وهو الصوت، وليس لنا عضو يجيب على البصر، ولا تصدُر عنا الألوان كما تصدر عنا الأصوات، وهذه وسيلة إضافية لتربية الحاسة الأولى بتدريب العضو السالب والعضو الموجب أحدهما مع الآخر. إميل Emile»[3].

(جـ) وعن المقارنة بين لغة الإيماء المعتمدة على البصر ولغة الكلام المعتمدة على الصوت – نقل هذا الكلام: «وعلى الرغم من أن لغة الإيماء ولغة الصوت طبيعيتان على حد سواء، فإن لغة الإيماء أسهل وأقل اعتمادًا على الاصطلاح؛ ذلك لأن الأشياء التي تجذب أبصارنا أكثر من الأشياء التي تجذب أسماعنا. كما أن الصور أكثر تنوعًا من الأصوات، بل أكثر قدرة على التعبير»[4].

إن هذه النصوص وأمثالها –رغم أنها تمثل ملحوظات فلسفية وتأملات عامة في مجال مقارنة خصائص الكتابة بغيرها – لها قيمتها اللغوية والسيميائية في بيان جوانب مهمة تتعلق بالسمع والاستماع، ويجب أن تكون محل نظر واعتبار فيهما.

رأي بارت:

وكما كان لدريدا تنظير تأسيسي في الكتابة، كان للناقد السيميائي رولان بارت (1915–1980م) سُهمة في هذا، خاصة في كتابه «هسهسة اللغة» الذي حاول فيه أن يرسى هذا المفهوم المتعلق بالصوت والاستماع، وقصد به – على وجه المجاز والاستعارة – صوت اللغة الخافت المنتظم لقشعريرة المعنى أو آلة الدلالة الصادرة في الأصل من فعل اللسان والكتابة. وهذا المفهوم مثالي وهو يشير إلى صوت محدد لكنه غير ممكن[5]. وإضافة إلى ذلك أشار بارت إلى مفهوم آخر هو «انفجار السمع»، وقصد به صدى الانقسام اللغوي المتمثل في تعدد مستويات استعمال اللغة داخل المجتمع الواحد والدولة الواحدة باسم الديمقراطية والاتجاه إلى ثقافة الجماهير، حيث إن هذا يعطينا صورة داخلية لحرب اللغات ويشطر كل فرد بالنسبة إلى نفسه، ويكون لسان حاله: «عندما أنجح فأتكلم لغة واحدة طَوال يومي، فكم من لغة مختلفة أجدني مضطرًا أن أستقبل! ثمة لغة زملائي، وساعي

(1) انظر: خمسون مفكرًا أساسيًّا معاصرًا: من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، لجون ليشته، ترجمة د. فاتن البستاني (المنظمة العربية للترجمة- بيروت – ط1 -2008) 222-225.

(2) في علم الكتابة لجاك دريدا: 158.

(3) السابق: 215.

(4) السابق: 430.

(5) انظر: هسهسة اللغة، لرولان بارت، ترجمة الدكتور منذر عياشي (دار نينوى – دمشق – ط1 - 2015) 115-119.

البريد، وطلابي، وكذلك لغة المعلّق الرياضي في المذياع، ولغة الكاتب الكلاسيكي الذي أقرؤه مساءً. ولقد يعني هذا أن المساواة بين اللغة التي نتكلم و(بين) تلك التي نسمع إنما هو وهم يتوهمه اللساني»[1]، وفي هذا التشتت اللغوي يصبح المفقود هو «تلاقي الكلام والسمع» خاصة بالنسبة لأبناء المجتمع الغربي المنقسم بلغاته الموحَّد بثقافته[2]. ومن أجل هذا نظر بارت إلى «الكتابة» بوصفها قيمة ونسقًا ينبغي الحفاظ عليه والدفاع عنه؛ لأنها -افتراضًا في صورتها المثالية- ليست منقسمة مثل لغة الكلام المسموعة[3].

إن هذا يعني أن بارت كان مشغولًا بالدفاع عن الكتابة، من منطلق مذهبه في علم العلامات أو السيمياء، وأن ذلك دفعه إلى مقارنتها بالكلام. وقد كان من أوجه ذلك إشارته إلى وجود نمطين للسانيات، هما: لسانيات الكلام الصوتي، ولسانيات الأثر المكتوب. وهذا في الحقيقة – كما رأى – يؤدي إلى التناقض؛ لأن اللسانيات لا تعالج من الناحية العملية إلا الكتابة ولغة الجملة، مع أنها تزعم أن الشكل الشرعي للغة هو الكلام[4]. ومن نتائج مقارنة بارت بين الكتابة والكلام أيضًا أن الكتابة فوق المكان لأنها ليست في حاجة إلى حيّزه، وأنها إبطال جزئي لأفخاخ الحوار، وذلك في مقابل أن المحادثة بحضور أطرافها المادي تنجز ما لا تنجزه الكتابة[5].

إذن أهم ما قدمه بارت في أمر الكتابة بالنسبة لنا مفهوم «انفجار السمع» والدفاع عن الكتابة لأنها ليست منقسمة كالكلام، وتمايزها بسمة عدم التحيز المكاني وتمايز المحادثة بسمة الإنجاز الزائد، والإشارة إلى إشكال ثنائية الكتابة والكلام بالنسبة إلى اللسانيات.

(1) السابق: 135، 136.
(2) انظر: السابق 136.
(3) انظر: السابق 158.
(4) انظر: السابق 183.
(5) انظر: السابق 164، 451، 460.

وإن حل هذا الإشكال في رأيي يمكن أن يكمن فيما سنبينه بعد من ضرورة الأخذ بمبدأ «الوسط» عند أبركرومبي.

إن النظرة اللسانية الاجتماعية المعاصرة إلى ثنائية اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة مختلفة عن التناول التقليدي الصارم الذي كان ينظر إلى الخصائص الصورية للغة؛ والتغير الذي حدث في ذلك تمثل في أن النظرة إلى المسألة صارت تدور في فلك أكبر هو الخطاب والممارسات الاجتماعية للغة والقوى المؤثرة، وهذه كلها مرتبطة بأشكال الكتابة المختلفة والسياق والمحادثات والحوار[6]. ويشكّل مجال التربية أهم سياقات العلاقة بين الكتابة والكلام، ويضاف إلى ذلك وجود هذه القضية في المؤسسات أيضًا، ومن أمثلة ذلك بروز مفهوم الاستماع في مجال القضاء وغيره[7]. بل إنه صار هناك إحساس بأن زمن تأثر المتحدثين بلغة الكتابة قد ولّى؛ لأن القيم الثقافية المعاصرة صارت تعلي كثيرًا من قيمة التخلص من الطابع الرسمي، والنهج المهيمن الآن هو التحول إلى غلبة أشكال الكلام المنطوق وما يشبهه. والمحادثة تُعدّ أنموذجًا قوي التأثير في هذا الاتجاه[8]. ولذلك يقدم نورمان فيركلف في إطار نظرية لغوية اجتماعية ثلاثية الأبعاد عن الخطاب مفهوم «استهلاك النص» تنظيرًا وتطبيقًا، ويشير إلى صور مختلفة لذلك، تتأثر بكيفية أداء النصوص ومدى أهميتها، وكونها تُسجّل أو لا تُسجّل، كما تختلف بطبيعة توزيعها وإعادة إنتاجها واختلاف جمهورها من حيث كونه مباشرًا أو غير مباشر[9].

(6) انظر: دليل السوسيولسانيات، تحرير فلوريان كولماس، ترجمة د. خالد الأشهب ود. ماجدولين النهيبي (المنظمة العربية للترجمة – بيروت – ط1 –2009) 335-358، 398، 399.
(7) انظر: السابق 388 - 397.
(8) الخطاب والتغير الاجتماعي، لنورمان فيركلف، ترجمة د. محمد عناني (المركز القومي للترجمة–القاهرة– ط1–2015) 252، 253.
(9) انظر: السابق 104، 105.

ثانيًا- الاستماع من المنظور الصوتي:

الأصوات في اللسانيات النظرية بمستوييها: علم الأصوات العام أو الأصوات النطقي (phonetics) وعلم الأصوات التشكيلي أو علم النظم الصوتية (phonology) – لا تُتصوَّر إلا بوجود طرفين: متكلم وسامع، ولا يعطي للصوت قيمة إلا كونه مسموعًا؛ وإن هذا ليبدو واضحًا في نظرة دي سوسير الثنائية إلى الفونيم – وهو من مفاهيم علم النظم الصوتية- عند تحديده وتعريفه، من منطلق كونه حدثًا منطوقًا أولًا مسموعًا ثانيًا، ولا يستقل بوجوده العضوي عن أثره السمعي الذي يحدثه عند المتلقي[1]. ويتضح ذلك أيضًا من خلال فكرة الدائرة الكلامية التي أشار إليها دي سوسير، وهي تحتاج – على الأقل – إلى شخصين كلاهما يتحدث إلى الآخر، ومع افتراض بدء الكلام من الشخص (أ) فإن «الفكرة المعينة تثير الصورة الصوتية التي ترتبط بها: وهذه الظاهرة السيكولوجية تتبعها عملية فسيولوجية: إذ يرسل الدماغ إشارة مناسبة للصورة إلى الأعضاء المستعملة لإنتاج الأصوات، فتنتقل الموجات الصوتية من فم الشخص (أ) إلى أذن الشخص (ب) وهذه عملية فيزيائية محضة، ثم تستمر الدائرة عند الشخص (ب) ولكن بأسلوب معكوس، إذ تسير الإشارة من الأذن إلى الدماغ، وهو إرسال فسيولوجي للصورة الصوتية: ويتم في الدماغ الربط السيكولوجي بين الصورة والفكرة، فإذا تكلم الشخص (ب) بدأ فعل جديد من دماغه إلى دماغ الشخص (أ) متبعًا خط السير نفسه الذي سار فيه الفعل الأول ومارًا بالمراحل نفسها»[2]. وكما هو واضح، هذه الدائرة منها ما هو خارجي – وهو انتقال الصوت من فم المتكلم إلى أذن السامع، ومنها ما هو داخلي وهو ما سوى ذلك، وكل الأشياء الفعالة في الجزء السيكولوجي من الدائرة تقوم بدور التنفيذ، ويرمز لها بـ (c-s) اختصارًا (concept -sound)، وأما كل الأشياء غير الفعالة فهي تقوم بدور الاستقبال، ويُرمز إليها بـ (s-c) اختصارًا لـ (concept -sound)[3].

ويلخص الدكتور سعد مصلوح هذه المسألة بقوله: «ويتبين لنا مما سبق أن مراحل نقل الرسالة اللغوية بواسطة الكلام تتضمن أربعة مستويات أساسية تتعاقب ثلاثة منها عند المتكلم على النحو التالي:

أولًا: المستوى اللغوي.

ثانيًا: المستوى العصبي.

ثالثًا: المستوى الفسيولوجي.

أما لدى السامع فينعكس الترتيب والتعاقب بين هذه المستويات ليصير:

أولًا: المستوى الفسيولوجي.

ثانيًا: المستوى العصبي.

ثالثًا: المستوى اللغوي.

أما المستوى الرابع – وهو المستوى الفيزيقي – فيمثل مرحلة وسطى ما بين التكلم والسماع، أو بعبارة أخرى، – ما بين الإرسال والاستقبال – حيث يتم نقل الرسالة المنطوقة لتصبح رسالة مسموعة»[4].

إن هذه العملية بمراحلها المختلفة تتحول بتنفيذها من جميع أفراد المجتمع من عمليات فردية متكررة إلى عملية اجتماعية، أي إلى لغة، وما يعنينا من ذلك فيما يتعلق بالسمع أن اللغة – كما ذكر دي سوسير – يوجد جزء منها في المسموع من الدائرة الكلامية، حيث ترتبط الصورة السمعية بالفكرة، ويبقى للسمع دوره مع افتراض فقد الإنسان للكلام، لأنه يظل محتفظًا باللغة إذا كان يستطيع فهم الإشارات الصوتية التي يسمعها[5].

(1) انظر: اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، للدكتور سمير استيتية (عالم الكتب الحديث بإربد وجدارا للكتاب العالمي بعمّان – ط2 – 2008م) 61، 67.

(2) علم اللغة العام، تأليف دي سوسير: 30.

(3) انظر: السابق 31.

(4) دراسة السمع والكلام، للدكتور سعد مصلوح 14، 15.

(5) انظر: علم اللغة العام لدي سوسير 33.

ولكي يكون الأمر واضحًا لا بد من تحرير فهم مصطلح مهم هنا هو مصطلح «الصورة الصوتية أو السمعية» (sound-image)، فهذا المفهوم هو نفسه عند دي سوسير مفهوم الدال الذي يقابل المدلول ومجموعهما هو الدلالة؛ فالدلالة عنده لا تربط بين الشيء الخارجي والاسم، وإنما بين الفكرة أي المدلول والدال، وهو الصورة الصوتية أو السمعية، وهو ليس الصوت المادي، بل هو الانطباع أو البصمة النفسية التي تتركها أصوات الكلمة في الحواس. ويزيل دي سوسير اللبس في ذلك بقوله: «إن الطبيعة السيكولوجية للصور الصوتية، تصبح واضحة عند ملاحظتنا للساننا. فنحن نستطيع أن نتكلم إلى أنفسنا أو نتلو قصيدة، من غير أن نحرك شفاهنا. ولما كنا نعدّ الكلمات الموجودة في لغتنا صورًا صوتية، وجب تجنب استخدام لفظة «الفونيمات» التي تتألف منها الكلمات. فهذه اللفظة التي توحي بفعالية صوتية لا يصح استخدامها إلا عند الحديث عن الكلمة المنطوق بها، أي عند إخراج الصورة الداخلية إلى الواقع في الحديث»[1]. ومن أجل هذا كانت الدلالة في هذا التصور عملية سيكولوجية. وإن هذا التمحيص في الجانب غير المادي للصورة السمعية مهم للغاية؛ لأنه على أساس منه يجري التمييز بين «الأصواتيات»(علم الأصوات المادي)، و«الصواتة» (علم الصورة الصوتية)[2].

وإذا كنا قد أشرنا منذ قليل إلى تقسيم ثنائي لعلم الأصوات، فثمة تقسيم آخر ثلاثي له يراعي النظر إلى تضمن أحداث الكلام لنشاط المُنتِج أو المُستقبِل، في إطار عمليات الكلام المخرجية وما يتعلق بمادته الفيزيائية ثم ما يرتبط بنقلها وإدراكها، وعلى هذا نجد: أولًا: علم الأصوات المخرجي أو الصوتيات النطقية (articulatory phonetics) الذي يهتم بدراسة أحداث الكلام وتصنيف الأصوات وفق ميكانيكيات النطق التي يُظَنّ أنها تنتجها، وثانيًا: علم الأصوات الفيزيائي أو الصوتيات الفيزيائية (acoustic phonetics) ومجاله مادة الكلام الطبيعية المتحققة في صورة موجات صوتية تنتقل عبر الهواء من المتكلم إلى السامع، وثالثًا: علم الأصوات السمعي أو الصوتيات السمعية (auditory phonetics) وموضوعه دراسة أصوات الكلام من حيث الطريقة التي يتم بوساطتها إدراك الأصوات وتمييزها من خلال أذن السامع ودماغه. لكن من بين هذه الفروع الثلاثة يبرز علم الأصوات المخرجي (الصوتيات النطقية) بوصفه أكثرها شهرة وأبلغها تطورًا وأعمقها دراسة[3].

وإن من أهم ما يقدمه علم الأصوات العام فيما يتعلق بجانب «الاستماع» فكرة «الوسط السمعي» التي سنعرضها من خلال تناول ديفيد أبركرومبي (1992-David Abercrombie- 1909) على النحو الآتي:

تعد فكرة «الوسَط» (medium) والفصل بينه وبين اللغة من أحسن الطرق لتقديم مادة علم الأصوات، كما ذكر أبركرومبي. وأبرز نوعين للوسط اللغوي هما: الوسط السمعي (aural medium) المتعلق بالشكل الأصلي للغة المنطوقة، والوسط المرئي (visual medium) المتعلق بشكل اللغة المكتوب، حيث يُسمّى كل نوع بالنظر إلى الحاسة التي يتوجّه إليها. وللوسط القدرة على أن ينتظم في نماذج، والأصل في علامات وسط اللغة المكتوبة أنها تبدو في صورة نماذج مكانية،

(1) السابق: 85. ومن الجدير بالذكر هنا أن دريدا في دفاعه عن الكتابة وربطه لها بمسألة النظرة إلى الوجود، وظف هذه الفكرة عند سوسير وربطها بفكرة «الإرجاء» عنده، انظر: في علم الكتابة 149، 150.

(2) انظر: النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، لماري وجورج 118.

(3) انظر: اللغة واللغويات، لجون لوينز، ترجمة الدكتور محمد العناني (دار جرير – عمّان – ط1 – 2009) 86، ومبادئ علم الأصوات العام، لديفيد أبركرومبي، ترجمة الدكتور محمد فتيح (القاهرة – مطبعة المدينة – ط1 – 1988) (حواشي المترجم) 240، 241.

والأصل في علامات وسط اللغة المسموعة أنها تبدو في صورة نماذج زمانية. ونجاح رسالة أداة اللغة مكفول بشكل عام بمناسبة الوسط المستخدم، ومن أمثلة ذلك مناسبة الوسط السمعي لاتصالات البشر اليومية العادية[1].

ومن أهم الملحوظات التي ذكرها أبركرومبي في مفهوم الوسط ما يتعلق بالحديث عن خصائص الوسط الإشارية والجمالية، يقول في التمهيد لذلك: «أهم ما يمتلكه الوسط من خصائص هو بالطبع إمكان تشكيله في نماذج في المكان أو الزمان، معقده ومتنوعة بصورة تكفي لحمل اللغة. وتعقّد النماذج التي يُحتاج إليها لهذا الغرض وتنوعها كبير جدًا، ومع ذلك فإمكانات تشكيل الوسط في نماذج أعظم بكثير مما يتطلبه استخدام أي لغة، كما يُبرز ذلك هذا التنوع المدهش في الطريقة التي استغلت بها احتمالات الأوساط من مختلف ألوان البشر، ففي العالم مئات الأشكال من الحروف، كما أن لنطق الكلمات طرائق كثيرة ومتنوعة تنوع اللغات أنفسها. ويمثل كل حرف وكل طريقة لنطق الكلمات اختيارًا صغيرًا للنماذج من المجموع الكبير لمصادر الوسط بوصفه وسيلة لحمل اللغة...»[2].

إن هذا الكلام يدلنا على الأهمية الهائلة التي تكمن في «الوسَط» والطاقات العظيمة له التي يمكن أن يُمدّ بها ويفيد فيها، وأظن أن الوسط السمعي – وهو ما يعنينا هنا – فيه كثير من الجوانب القيمة المستترة الجديرة بإماطة اللثام عنها. ومن ذلك عمومًا ما يحمله الوسط من خصائص فوق لغوية ذات وظائف يمكن أن تكون أكثر أهمية من الاتصال اللغوي نفسه، وهذه الخصائص ذات أنظمة منفصلة يمكن تسميتها بـ«الخصائص الإشارية» (indexical features)، وهي تقع مقابلة للخصائص اللغوية (linguistic features). وبعض الخصائص الإشارية عام ومكتسب وبعضها فردي شخصي، وثمة فنّ معترف به لدراسة الشخص عن طريق كتابته اسمه (graphology)، وقد حظي باهتمام كبير من علماء النفس الذين صار في إمكانهم – من خلال الاعتماد على خطّ اليد– أن يصدروا أحكامًا دقيقة تحدد الجنس والسنّ والشخصية، وفي مقابل ذلك لا يوجد اسم لفن خاص بدراسة الخصائص الإشارية السمعية للشخص؛ لأن كل الناس يمارسون ذلك بشكل طبيعي حيث لا يمكن أن يكون هناك خطأ في تقدير مفاتيح الجنس والسن التي تتضمنها الألفاظ المنطوقة، «ومن الممكن خلافًا للوسط المرئي أن تكون خصائص الوسط الشفوي الإشارية المثيرة للاهتمام الأعظم هي بالأحرى تلك التي تشير إلى خصائص اجتماعية لا فردية، بل من المحتمل أن الوسط السمعي يقوم بوظيفته من الناحية الإشارية على نحو أشمل وأدق من أي نوع آخر للسلوك الإنساني»[3]. وبناء على ذلك تنقسم إشارات الوسط السمعي إلى ثلاثة أنواع:

(أ) الإشارات الدالة على الانتساب إلى طائفة من الناس، كالإشارات النطقية الدالة على اللهجات أو الوضع الاجتماعي أو الفئات الخاصة.

(ب) الإشارات المميزة للفرد، كإشارات السن والجنس وعيوب النطق.

(جـ) الإشارات الكاشفة لحالات المتكلم المتغيرة، خاصة ما يدل على حالة معنوية كالغضب والاحتقار والتعطف والشك، من خلال نغمة الصوت (tone of voice).

وبلفظ صريح يشير أبركرومبي إلى كون المجال مفتوحًا للقيام بأبحاث استكشافية مهمة في هذا المجال

(1) انظر: مبادئ علم الأصوات العام، لأبركرومبي 7-11.
(2) السابق: 12.
(3) السابق: 15.

بقولـه: «ومهمـة علـم الأصوات أن يتعـرف علـى هـذه الخصائـص الإشاريـة المتنوعة في نطقنـا وأن يصفها، لكنهـا بالطبع مهمة علـوم أخرى أن تبحـث الدور الذي تلعبه في العلاقات الإنسانية»[1].

وأما خصائص الوسط الجمالية، فعلى الرغم من أنها مستقلة على وجه العموم عن الوظائف اللغوية والإشارية فهـي ذات أهميـة قـصوى، خـاصة خصائـص الوسط السمعـي الموسيقية التـي تتحدد في: الإيقـاع rhythm، وتنـوع طبقـة الـصوت pitch أو اللحـن melody. هـذا بالإضافـة إلى أن الـوسط السمعـي يشمـل أيـضًا التذبذبـات الثابتة في صفة الصوت أو الجرس tamber (أو timbre المعـروف أيضًا باسم «لـون النغمة» tone colour)، وهو مـا يمكن أن يُعدّ للاستخدام في إحداث تأثيرات جمالية متنوعـة، كالقافية rhyme و«التجانس الصــوتـي» assonance و«الجنـاس الاسـتهـلالي» alliteration[2]. «وقـد استغـل الشعـراء في اللغـات جميعهـا خصائص الوسط الموسيقية هـذه، كما أنها في وقتنا الحاضر موضوع اهتمام كتّاب الإعلانات، ومؤلفي الشعارات السياسيـة؛ فبعض الأشعار ومعظم الشعارات السياسيـة وعبـارات الإعـلان البراقـة تعتمد مـن أجل تأثيرها، على وجوه الوسط السحرية بقدر ما تعتمد على المعنـى الـذي يحمله الـوسط»[3]. علـى أن بعض حالات الـوسط الجمالية مرئيـة أو سمعية تظـل نسبية ترتبط أحكامهـا بالذوق وما يمكـن أن يوجد فيـه من اختلاف بحسب الزمان أو المكان. ومسألة القيم الجمالية للوسط لهـا ارتباط واضح بقضيـة اعتباطيـة الإشارات اللغوية ومحاكاة أصوات بعض الكلمات للمعنى[4].

وللأجهزة المساعدة (كمسجّل الصوت وما هو أحدث من ذلك بالطبع) دور مهم في تحسين أداء الوسط وربط نـشاط المنتج بالمستقبل، بل لها دور كذلك فيما ينتج عن هــذه الأجهزة من أبحـاث متطورة خـاصة بتحويل أحد النمطين إلى الآخر، فتجعل الوسط السمعي مرئيًا يمكن قراءته، والـوسط المرئي مسموعًا حتـى يمكن الاستماع إليـه[5]. ومن أهم الملحوظات الخاصة بالوسط أيضًا أن الـوسط السمعي هو الأصل وتُعـد أنظمة الكتابة والرموز المرئيـة تابعـة له وناشئة مـن تحليله، كمـا أن اللغة غير الوسط وإن كانا يبدوان كثيرًا كالشيء الواحد، والفصل بينهما مهم. وعلـى الرغم من أننا لا نستطيع أن نتصور اللغـة دون وسط، فمـن الممكن أن ندرك الـوسط أحيانًا دون لغـة. ومن أمثلة ذلك في الـوسط السمعي استماعنا إلى لغـة أجنبية لم نتعلمها بعد أو ليس لدينا فكرة عنها. «وهنـاك ألوان أخرى مـن التمييز تتضمـن التباين بين اللغـة والـوسط؛ فالكلمتـان: accent و dialect غالبًا مـا تستخدمـان استخدامًـا غامضًا لكن مـن الممكن أن تكونا أدق إذا ما أخذت الكلمة الأولى على أنها تشير إلى خـواص الـوسط فقط، على حين تؤخـذ الثانية على أنها تومـئ إلى خواص اللغة أيـضًا. وما حدث منذ زمن بعيد من فصل بين الشعر poetry والنَّظم verse يمكن أن تعاد صياغته بشكل مناسب على النحو نفسه؛ فيمكن أن يقال: إن النَّظم يعتمد على تأثيرات وسط اللغة المنطوقة

(1) السابـق: 19. وهـذه الظواهـر الإشاريـة بدلالاتها مـوضوع يُتناوَل أيـضًا فيما يسميـه البعـض – مـع الإغراب في المصطلـح – «السوسيوصواتـة» الواقعة في إطـار «السوسيولسانيـات». انظـر: دليـل السوسيولسانيات، تحريـر فلوريان كولماس 195.

(2) انظـر: مبادئ علـم الأصوات العام 20. ومن الملحوظـات المهمة هنا أن التراث العربـي – كما أشار مترجم كتاب أبركرومبـي الدكتور فتيح – يزخر بدراسة مفصلـة للإمكانات الجمالية للوسط الشفوي، ويمثل مـا أشار إليه المؤلف هنا جزءًا صغيرًا من هذه الدراسة. وقد اضطلع بذلك علماء البديع في دراستهم لما يسمى بالمحسنات البديعية (خاصة الجناس وردّ الصدر على العجز والسجع). انظر: مبادئ علم الأصوات العام (حواشي المترجم) 246 -249.

(3) السابق: 20.

(4) انظـر: السابـق 21-27. وقد ذكر المترجـم الدكتور فتيح تعليقًـا مفصلًا في بحث مـا يقابل هذه الملحوظات في تراث علماء العربيـة، ومن ذلك إشارته إلى أن بحث فصاحة اللفظ المفرد وكيفية ائتلاف الأصوات في الكلمة العربية مثّل مجالًا خاص فيه البلاغيون واللغويون العرب في مسألة المفاضلة بين الكلمات من حيث أشكالها أو صورها السمعية. انظر: السابق (حواشي المترجم) 249 - 257 .

(5) انظر: السابق 27-30، وانظر أيضًا: الصوتيات، لجاكلين فيسيار، ترجمة بسام بركـة وروز الكلـش (المنظمة العربية للترجمة – بـيروت – ط1-2013) 79، 80.

فقط، على حين ينبني الشعر على استخدام اللغة بالإضافة إلى الوسطين كلهيما في العادة»[1].

لقد ذكر أبركرومبي مسألة «الوسط» بمسائله هذه التي بيناها على أنها الفصل الأول الذي يمثل مقدمة لكتابه (مبادئ علم الأصوات العام - 1967)، وقد تبين أن هذه المسألة شديدة الأهمية في الحديث عن مفهوم الاستماع؛ لأنها تمثل تأصيلًا قويًا له يَرِدُ من علم الأصوات وهو والمجال الأساسي في هذا المقام.

وإلى جانب ذلك نظن أن أكثر فصول الكتاب الأخرى اشتمالًا على مسائل تتصل بالسمع والاستماع الفصل الخاص بنوعية الجهر وديناميته والفصل الخاص بالصوامت الوقفية. فخواص دينامية الجهر يمكن تعلمها، وينزع الناس إلى تقليد الآخرين فيها، وهي أيضًا قادرة على تمييز الأفراد والطوائف الاجتماعية، وهي تشمل هذه العناصر: الجهارة (loundness)، وسرعة الإيقاع (tempo)، والاستمرارية (continuity)، والإيقاع (rhythm)، والمجال الطبقي (tessitura)، والنغمة (register)، وتذبذبات طبقة الصوت (pitch fluctuation)[2]. وبناء على ذلك نجد مسائل من مثل:

1- أن الجهارة خاصة سمعية أو سيكولوجية وجدانية، تتوقف على شدة الصوت بوصفها خاصة فيزيقية تتوقف على اتساع الذبذبات المرتبطة بالصوت، فكلمات زادت زاد علو الصوت، وكلما نقصت نقص علوه[3].

2- أن الإيقاع في الكلام -كما في غيره من الأنشطة الإنسانية- ناتج عن التكرار المنتظم لنوع ما من الحركات تكرارًا يؤدي إلى توقع استمرار حدوثه باطراد، والحركات المؤدية إليه هي حركات العمليتين المنتجتين للنبر والمقطع، يقول أبركرومبي في نص كاشف مهم عن حقيقة الإيقاع ووجود جانبين له يرتبطان بالمتكلم والسامع: «وهناك فحاوى هامة بخصوص الإدراك هنا؛ فإيقاع الكلام يُتذوّق بوصفه حركة إيقاع، ومن الجلي أن المتكلم يتذوقه مباشرة بتلك الطريقة، فماذا يكون الأمر بخصوص المستمع؟ يمكننا أن نقول إنه أيضًا يتذوّق إيقاع الحركة بالنيابة فهو بمعنى ما، متكلم أيضًا؛ فكما سبق أن أوضحنا، التعرف على «التشابه التام بين المتكلم والسامع» أساسي لفهم إدراك وجوه الكلام الكثيرة. نعم نتحدث لسهولة الاستعمال عن إيقاع «السماع»، لكننا في الحقيقة نشعر به يتسرب قطعًا إلى حركات المتكلم، التي تعتبر الأصوات المسموعة دلائل عليها. ولكي يكون لدينا هذا الفهم الفطري المباشر لإيقاع الكلام، ينبغي أن تكون اللغة الأم mother tongue الخاصة بالمتكلم والسامع واحدة، وإلا فلن يعمل التقمص الوجداني الصوتي phonetic empathy عمله، أي لن يُتعرّف على الأصوات بوصفها دلائل دقيقة على الحركات التي تنتجها»[4].

3- أن هناك نوعين من الإيقاع يحددهما أبركرومبي مصنّفاً العربية في أحدهما بقوله: «والطريقة التي تتكرر بها النبضات الصدرية والنبرية، أي هيئة تتابعهما وتناسقهما هي ما يحدد إيقاع اللغة. وهناك طريقتان مختلفتان أساسًا للجمع بينهما، وتؤدي هاتان الطريقتان إلى إيجاد نوعين رئيسيين لإيقاع

(1) مبادئ علم الأصوات العام: 33. ويضاف إلى ما تقدم من التفريق بين الشعر والنظم ما ذكره المترجم من اختلاف مفهومي الشعر والنظم عن النثر نفسه في كونهما يتبعان أنساقًا مطردة لا يتبعها النثر، هذه الأنساق تعتمد على المنطوق غير المتقيد في قيمته الصوتية بالرموز الكتابية العادية. انظر: السابق (حواشي المترجم) 264. وانظر أيضًا: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، لمجدي وهبة وكامل المهندس (مكتبة لبنان - بيروت - ط2 - 1984) 210، 414.

(2) انظر: مبادئ علم الأصوات العام 144.

(3) انظر: السابق (حواشي المترجم) 312

(4) مبادئ علم الأصوات العام 147.

الـكلام. وتتكلـم كل لغة في العالم فيمـا نعلم مع نوع أو آخـر من هذيـن النوعين. ويُعـرف الإيقاع في نوع منهما باسم «الإيقاع المقطعي» a syllable-timed rhythm؛ ففيـه يُستمـدّ تكرُّر الحركـة المنتظم من العمليـة المنتجـة للمقطع، أي أن نبـضات الرئة ومن ثَـمّ المقاطع تتكرر علـى فترات زمنيـة متحدة؛ فهي متساوية الزمـن isochronous. وتشرح الفرنسية والتّلوجية Telugu واليروبا Yoruba هذا النوع من التنسيـق بين نظامي النبضة؛ فهـي «لغات مقطعية» languages syllable-timed. وفي النـوع الآخر من نوعـي الإيقاع، المعروف بـاسم «الإيقاع النبري» stress-timed rhythm يُستَمـدّ تكـرار الحركـة المنتظم مـن العملية المنتجة للنـبر؛ فنبضات النبر، ومن ثَمّ المقاطع المنبورة، (متساوية الزمن). وتوضح هذا النوعَ الآخر الإنجليزية والروسية والعربية، «فهي لغـات منبـورة» languages stress-timed[1]. وبنـاءً علـى ذلك يكون إيقـاع أبناء اللغة هـو أساس الشعر في معظـم اللغات، وهو يُتذوّق بطريقة فطرية عـن طريق التقمـص الوجداني المتكـئ على المعرفة باللغة الأم، على النحـو المشار إليه من قبل، فالشعر الفرنسي مـؤسس على الإيقاع المقطعي، والإنجليزي متربـط بالإيقـاع النـبري، وكذلـك الشعـر العربي العمودي معتمد على الإيقاع النبري أيضًا[2].

4-«المجـال الطبقي» مـن مصطلحات خـواص دينامية الجهـر وهـو مستعار مـن مصطلحـات الموسيقيين؛ فكلمة (voice) بمعناهـا الصوتي الفنيّ تشير إلى الـصوت الناشئ عـن التصويـت، وهي تعنـي نغمة موسيقية ذات تردد أساسي، ومن ثمّ يكون لها طبقة يسهل التعرف إليها[3]، وطبقة الصوت هذه «خاصة سمعيـة سيكلوجيـة تمكّـن السامـع مـن أن يتصور الـصوت على نحو متدرج يبدأ من الطبقة المنخفضة إلى الطبقة العالية. وتتوقف هـذه الخاصة السمعية علـى أخرى فيزيقية خـاصة بالـصوت تعرف باسم التردد frequency وتشير إلى عدد الذبذبات التي ينتجهـا مصدر الـصوت في الثانية، وهـو هنا حركة الأوتار الصوتية»[4].

وإذا كان حديث أبركرومبي عن «الجهر» و«الصوامت الوقفية» – في ظننا – هو أكثر المواضع إشارة إلى مسائل تتعلـق بالسمع والاستماع، فإن هـذا لا يعني خلو المباحث الأخـرى من هـذه المسائل، ومن ذلك مـا يثيره الحديث عن المقطع من إشكاليات متعددة، من أبرزها الاختلاف في تعريفـه، وقد أشار مترجم كتابه الدكتور فتيح إلى أن لاديفوجد قدم ملخـصًا واضحًا ووافيًا للأسس النظرية التـي انبنـى عليهـا تعريـف المقطـع وقد جمـع ذلك في مجموعتين:

5- الأولى: نظريـات تعريـف المقاطـع في صورة خواص الأصوات باعتبارهـا مسموعة وبمراعاة شق السمع، وقد أُشيرَ هنا إلى نظريتين: أولاهما: نظرية الوضوح السمعـي (sonority theory) وفيهـا تُعـرّف المقاطـع بالنظر إلى درجة الوضوح السمعي الخاصة بـكل صوت، أي أن المقاطـع يمكـن تحديدهـا بأنها تجمّع صوتـي يضم خلالـه صوتًا واحـدًا تزيد قوته الإسماعية عن غيره. وثانيتهما: نظرية بروز الصوت (prominence theory) وفيهـا تُعـرّف المقاطع بالنظر إلى ما يُسمّى الـبروز النسبي للصوت، وهنا يكـون الاعتمـاد في تحديد المقاطـع مقسّمًا بين بروز الـصوت بالنظر إلى قوة إسماعـه، والنظر إلى نبره وطوله وطبقته الفعلية.

(1) مبادئ علم الأصوات العام 147، 148. وقد أشار المؤلف في حواشيه إلى أن آرثر جيمس سمّى نوعي الإيقاع المشار إليهما: إيقاع المدفع الرشاش، وإيقاع إشارات مورس. انظر: ص339.

(2) انظر: السابق 149، وحواشي المترجم ص 312.

(3) انظر: السابق 150.

(4) السابق (حواشي المترجم) 313.

6- والثانيـة: نظريات تعريف المقاطـع في صورة أنشطة المتكلـم وبمراعـاة شق التكلم. وقد فـضل لاديفوجد هذا النوع الثاني من النظريات[1].

تعليق وتعقيب:

نستطيع أن نقول إن أهـم المسائل الصوتية السمعية التـي وردت عند أبركرومبي هي: فكـرة الوسط السمعي وخصائـصه الإشاريـة والجماليـة، والإيقـاع والنغمـة. وجديـر بالذكر أن فكرة الـوسط هذه بشقيهـا السمعي والبـصري أظن أنهـا تحل كثيرًا مـن الإشكال في قضية الكتابـة، كمـا مر عرضها عنـد الحديث عنهـا. وختامًا لهذه المسألة، نستطيع أن نضيف الملحوظات الآتية:

1- إذا كانـت اللسانيات النظرية كما هو شائع ومعروف هـي لسانيـات المنطـوق المسمـوع، مـع التركيز على المنطـوق، وإذا جاز أن يُدعـى إلى العناية بلسانيات المكتـوب من خـلال مـا يمكـن تسميتـه بـ«الصواتة البصريـة» (visual phonology) في مقابـل ما يمكن تسميته بـ«الصواتـة السمعية»(phonology auditive)[2] – فإن هذا يدل على ضرورة التوجه إلى العنايـة بالجانب السمعـي في اللسانيات وأهمية إيلائه ما يستحقه من نظر مع خصب مجاله.

2- ذكـر أبركرومبـي أن الإيقاع نوعان رئيـسان نبري، ومقطعي، ويـضاف إلى ذلك أنه يوجد جانب سمعي إدراكي تـداولي للإيقاع يشعر به الأجنبي، ومن هذا مـا توصف بـه الفرنسية بأنها «لغـة صاعدة» لشيوع الصوائـت في نهاية عدد كبير من كلماتها، في مقابل أن الفرنسي يشعر «بنبر الإلحاح» في الإنجليزية وهو نـاشئ من التكـرار الشديد وشبـه المنتظم للمقاطع الشديـدة النـبرة المصحوبة بهجمـة صوامتية قوية تتنـاوب مع مقاطـع منخفـضة، في حـين أن الإيقاع يبـدو في اليابانية رتيبًا وفوضويًا بعض الشيء بسبب تعاقب المقاطع المرتفعـة والمقاطع المنخفضة[3]. وإن هـذا الأمر يأخذ أحيانًـا شكل إصدار بعض الأحكام الإيجابيـة أو السلبية، مثل وصف الإيطالية بأنها لغة جميلـة، ووصف لغات أخرى (مثـل اللغات الأوروبية المعروفة باستعمالها للأصوات الحلقية والحنجرية) بأنها خشنـة أو قبيحة. لكن مثل هذه الأحكام ليست محل اتفاق[4].

3- إن معظـم خصائـص الـوسط السمعـي الجماليـة التـي أشار إليهـا أبركرومبـي، مـن إيقـاع ونغمـة وتنـوع في طبقة الصوت وغير ذلـك، يمكن إدراجها في إطـار عـام هو مـا يُسمّـى بـ«المعـالم التطريزية» (prosodic features) أو «التطـريـزيـة» (prosody). وقد عَرّف بعضهم «المعلم التطريزي» بأنه – بناء على منهج فيرث – «معلم صوتي يقع في أكـثر من مقطع واحد أو أكـثر من كلمة واحدة وربما امتـد ليشمل الجملـة أو القـول. ومـن أنواعه النبر والنغم والوقفة والجهـارة والإيقاع والسرعة...»[5]. وذكـرت جاكلـين فيسيـار أن التطريزيـة أو النغمية

(1) انظـر: السابق نفـسه 272-274، ونص الكتاب الأصلي 56. وقد أشار المترجم إلى أن د. سعـد مصلـوح اعتمـد في تحديـده للمقطـع المنبـور علـى المزج بين نظرية الـوضوح السمعي ونظرية مراعاة نشاط التكلـم عند ستيتسون. انظر: السابـق (حواشي المترجم) 274. وثمة ملحوظة جديـرة بالذكر هنا تتمثل في أن كثـيرًا من مسائـل الصوتيات السمعية مشار إليهـا بطريقة أخرى في بعض المـصادر الأخـرى ولا يتسع المقـام لتفصيلها، ومن ذلـك: تحديد الخصائص السمعيـة لـلأصوات في: مُدتهـا وترددهـا الأساسي وشدتها الماديـة وتركيبها الطيفـي وجانبها الثابـت أو الديناميكي (انظر: الصوتيـات لجاكلين فيسيار، ص81) وكذلـك الإشارة إلى بعض مظاهر إدراك الكلام من الناحية السمعية كاستراتيجيات الفهم (انظر: السابق ص 107 - 109 ، 119).

(2) مـن المفـترض أن «الصواتة السمعية» تتمثل في المباحـث الصوتية المعروفة، أما «الصواتـة البصرية» فتُعنى بالجانب الشكلي في تعبيرية الكتابة ممثلة في نسق الحـروف الخطية وعلامات الترقيم والعلامات الإعجامية والروابط وإشارات الـضُّم البُكم. انظر: في الصواتة البصرية، من لسانيات المنطوق إلى لسانيات المكتوب، للدكتور مبارك حنون (دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت – ط1- 2013) 7 - 11.

(3) انظر: الصوتيات، لجاكلين فيسيار 136 ،137.

(4) انظر: دليل السوسيولسانيات 210-211.

(5) انظـر: معجـم المصطلحات اللغويـة، تأليف الدكتور رمزي بعلبكـي (دار العلم للملايين – ط1 – 1990) 405.

– كما يترجمها بعضهم – كانت تعرّف تقليديًا بأنها دراسة كمية الصوائت (الطول الصائتي) في نظم الشعر، ثم اتسع مدلولها ليشمل كل مظاهر الكلام التي لا ترتبط بتحديد المقاطع وبخاصة التنبير المعجمي والتنغيم والإيقاع. وقد جذب تطور التكنولوجيات الصوتية والتوجهات الجديدة للسانيات الأنظار إلى العوامل التطريزية في الكلام العفوي وفي مواقف حقيقية كالحوار الذي تطغى فيه وظائف هذه العوامل، وانفجر نهر الدراسات المتعلقة بالنغمية بكل معنى الكلمة، حيث نجد دراسات حول النغمية والخطاب، والنغمية وشخصية المتكلم، والتعبير عن المواقف والعواطف، وكان من نتائج ذلك تيسير تعريف التطريزية من خلال وظائفها التي تتضمن: وظيفة معجمية، وتحديدية وتداولية وسلوكية وانفعالية وتعريفية، ووظيفة أسلوبية كذلك وجمالية تظهر في الشعر، خاصة أن ثمة علاقة قوية بين الأسوب والجوانب الموسيقية[1]. إن مما يؤكد ارتباط التطريزية بالاستماع أن من الصور العملية لهذه الوظائف أن دراسة محادثة ما – وهي لا تكون إلا بين طرفين: متكلم ومستمع – توضح وظيفة التطريز الخطابية في معناها الأوسع، إذ تساعد على تمييز المعلومات التي يتبادلها الطرفان، كما تسهم في إدارة أدوار الكلام[2]. وكذلك أيضًا يشترك في هذا التأكيد أنه لا يشار للسمات التطريزية في الوسط الكتابي إلا بصعوبة وبطريقة غير كافية، كاستخدام الحروف المائلة التي يمكن أن تشير إلى التفخيم[3].

الخاتمة وأهم نتائج البحث

نستطيع أن نلخص أهم ما تناوله البحث وأن نذكر أهم نتائجه فيما يأتي:

أولًا:

لفت البحث النظر إلى أهمية دراسة الاستماع في اللسانيات في ضوء أهم نظرياتها المختلفة، وبين أنها تكاد تكون كالمسكوت عنه إلا من جهة دراسة السمع في ضوء علاقته بالكلام في علم الأصوات، وجهة أخرى مشهورة هي الاستماع بوصفه مهارة من مهارات تعليم اللغة، هذا مع أن ثمة جوانب مختلفة مهمة له بها صلات معقودة بروابط قوية، وقد أشار البحث إليها ووقف عند اثنين منها وفصلهما هما: علاقته بقضية الكتابة وفلسفتها في ضوء المقابلة بين اللغة السمعية واللغة البصرية والإشارية، وتوسيع الإطار الصوتي لبحث الاستماع في علم الأصوات، وتجاوز حدود مفهوم الإدراك السمعي وتجازوها.

ثانيًا:

بمقارنة حالة السمع بالكلام لدى الإنسان نجد أننا نسمع أكثر مما نتكلم، وهذا يعني أن ما يفد على الأذن من أفكار وما تستقبله من معلومات ومسموعات له تأثير وسلطان. واللغة إما أن تكون سمعية وإما أن تكون بصرية أو إشارية. والنظر إلى علاقة الاستماع واللغة المنطوقة بقضية الكتابة من الناحية اللسانية العامة ومن الناحية المعرفية يبين أن إثارة دي سوسير لهذه المسألة التي رجح فيها أهمية اللغة المنطوقة– كان لها أثرها وصداها المستمران، ومن أهم من كتبوا فيها جاك دريدا ورولان بارت، فأما دريدا فقد شكك في الهجوم على الكتابة من الناحية المعرفية والتاريخية، وإن كان قد أثار كثيرًا من الأفكار المتعلقة بالاستماع من خلال النصوص التي نقلها، وأما رولان بارت فقد مهد السبيل للحديث عما يتسم به

(1) انظر: مدخل لفهم اللسانيات، لروبير مارتان، ترجمة د. عبد القادر المهيري (المنظمة العربية للترجمة – بيروت – ط-1 2007) 195.
(2) انظر: الصوتيات لجاكلين فيسيار 123-130.
(3) انظر: معجم الأسلوبيات، لكاتي وايلز، ترجمة خالد الأشهب (المنظمة العربية للترجمة – بيروت- ط-1 2014) 557.

العصر الحديث من شيوع فوضى الكلام الذي أدى إلى «انفجار السمع»، ودافع عن الكتابة بأنها ليست منقسمة كالكلام، وإن كان قد ذكر لكل نوع أهم مميزاته وأشار إلى إشكالية الضربين في اللسانيات. والنظرة اللسانية الاجتماعية المعاصرة إلى هذه القضية أو الإشكالية لم تعد بالحدة التي كانت عليها، فثمة تغير قد حدث تمثل في أن المسألة صارت تدور في فلك الخطاب والممارسات الاجتماعية المتعددة للغة كلها، وهي متنوعة ما بين كتابات ومحادثات وحوارات وغيرها، بل إن البعض صرح – مبالغًا– بأن زمن الكتابة قد ولى وأصبح التيار العام يميل نحو غلبة اللغة المنطوقة، والمحادثة أنموذج قوي في هذا الاتجاه.

ثالثًا:

من حيث المنظور الصوتي (لسانيات المنطوق) تناولنا مفهوم الدائرة الكلامية عند سوسير التي من خلالها تتبين المراحل المختلفة للكلام حتى ينتقل من المتكلم ويصل على إدراك السامع، كما أشرنا إلى مصطلحات علم الأصوات وعلاقتها بكونها عامة أو خاصة تراعي عموم النطق والسمع أو خصوصهما، وتبين أنه في هذا الإطار يوجد تقسيمان أحدهما ثنائي والآخر ثلاثي. ولكي نعرض أهم ما في علم الأصوات العام من قضايا تتصل بالسمع والاستماع تبين لنا أن كتاب أبركرومبي مناسب جدًا من هذه الناحية؛ نظرًا لأنه قدم فكرة فارقة جديرة بالالتفات إليها، هي فكرة الوسط السمعي والوسط البصري للغة. وفي هذا الإطار عرضنا مجمل رأيه فيها بالنظر إلى معطياتها، كما عرضنا أهم آرائه ومسائله الصوتية ذات العلاقة بالاستماع، ثم ربطنا كلامه في الإيقاع ونوعيه بالجانب الإدراكي التداولي له المتمثل فيما توصف به بعض اللغات من صفات تُعد أحكامًا تقييمية مختلفة إيجابًا وسلبًا، كما ربطنا ما بينه أبركرومبي من الخصائص الجمالية للوسط السمعي المتعلقة بالإيقاع والنغمة وتنوع طبقة الصوت وغيره– بما يسمى «المعالم التطريزية» أو «التطريزية»، وأشرنا إلى تطور دراسة هذا المجال وتنوعه، ولفتنا النظر إلى أهميته ووظيفته في الخطاب بمعناه الواسع وقوة علاقته بالجانب السمعي مقارنة بالكتابة.

وبناء على هذا التلخيص نستطيع أن نضيف هاتين النتيجتين:

الأولى: أن مفهوم السمع أو الاستماع بالنظر إلى مادة الكلام ومكوّن اللغة مفهوم عملي إدراكي؛ لأن السمع جزء من الدائرة الكلامية كما بينها دي سوسير، ويتعلق بذلك مفهوم الصورة الصوتية أو السمعية التي هي الدالّ، ويُقصد به الانطباع النفسي الذي تتركه أصوات الكلمة في الحواس، وعلى أساس من فهم هذه الصورة بهذا الشكل يكون هناك تمحيص مهم يسهم في التمييز بين علم الأصوات العام (phonetics) وعلم الأصوات التشكيلي أو الصواتة (phonology)، وهذا بُعد أو مفهوم علمي في المسألة. ويضاف إلى ذلك بعد أو مفهوم علمي آخر يتصل بالسمع وهو علم الأصوات السمعي (auditory phonetics) الذي موضوعه دراسة أصوات الكلام من حيث الطريقة التي يتم بوساطتها إدراك الأصوات وتمييزها من خلال أذن السامع ودماغه. فكأن الحاصل وجود مفهوم عملي إدراكي واقعي للسمع في مكون اللغة يتأسس عليه مفهوم علمي يتبوأ مكانه في علم الأصوات التشكيلي وعلم الأصوات السمعي.

النتيجة الثانية: أن مفهوم الوسط اللغوي بجانبيه السمعي والبصري مفهوم أظن أنه يحل كثيرًا من الإشكال في قضية النزاع المعرفي أو الفلسفي بين الكتابة والكلام وما يتبعه من سمع واستماع. ويعد مفهوم الوسط هذا من أهم المفاهيم التي استُنبطت هنا، وهو عظيم الأهمية (لأنه إلى جانب استثماره في كونه سمة

تمييزية فارقة بين اللغة وطريقة حملها وأدائها حالة كونها مكتوبة أو منطوقة مسموعة، بمعنى أن اللغة في حقيقتها شيء والوسط شيء آخر) – فهو يُستثمر أيضًا فيما يمكن تصوره وندعو إليه نحن وغيرنا من العناية بما يمكن تسميته بـ«علم الاستماع» الواقع في حوزة كل ما يتعلق بالوسط السمعي، في مقابل وسط الكتابة البصري الذي عُبّر عن جزء منه في مفهوم «الصواتة البصرية». ومعنى ذلك أن الاستماع في هذا الإطار مفهومه «وسَطي»، أي مجاليّ. وهذا المفهوم للوسط السمعي بشقه الإشاري الدال على جنس الفرد وسنه أو حالته المزاجية أو انتسابه إلى فئة اجتماعية – مفهوم اجتماعي وظيفي، وهو بشقه الجمالي مفهومه وظيفي تداولي يعتمد على السمات التطريزية التي من أهمها الإيقاع، وهو يوظف في مجالات كثيرة في الشعر والخطاب وإصدار بعض الأحكام التقييمية. وهنا نستطيع أن نقول إن الاستماع بهذا التصور يلتئم فيه الجانب المفهومي بالجانب الغائي.

المصادر والمراجع

أولًا – الكتب:

- أساسيات اللغة، لرومان جاكوبسون وهالة موريس، ترجمة سعيد الغانمي (منشورات كلمة، أبو ظبي، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – ط1 – 2008م).
- الخطاب والتغير الاجتماعي، لنورمان فيركلف، ترجمة د. محمد عناني (المركز القومي للترجمة–القاهرة– ط–1 2015م).
- خمسون مفكرًا أساسيًّا معاصرًا، من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، لجون ليشته، ترجمة د. فاتن البستاني (المنظمة العربية للترجمة–بيروت – ط1 – 2008م).
- دراسة السمع والكلام، للدكتور سعد مصلوح (عالم الكتب – القاهرة – 1980م).
- دليل السوسيولسانيات، تحرير فلوريان كولماس، ترجمة د. خالد الأشهب ود. ماجدولين النهيبي (المنظمة العربية للترجمة – بيروت – ط1 – 2009م).
- الصوتيات، لجاكلين فيسيار، ترجمة بسام بركة وروز الكلش (المنظمة العربية للترجمة – بيروت – ط1 – 2013م).
- علم اللغة العام، لفردينان دي سوسير، ترجمة الدكتور يوئيل عزيز، مراجعة د. مالك المطلبي (دار الكتب للطباعة والنشر – جامعة الموصل – 1988م).
- في الصواتة البصرية، من لسانيات المنطوق إلى لسانيات المكتوب، للدكتور مبارك حنون (دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت – ط1 – 2013م).
- في علم الكتابة، جاك دريدا، ترجمة وتقديم أنور مغيث ومنى طلبة (المركز القومي للترجمة – القاهرة – ط2 – 2008 م).
- اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، للدكتور سمير استيتية (عالم الكتب الحديث بإربد وجدارا للكتاب العالمي بعمّان – ط2 – 2008م).
- اللغة واللغويات، لجون لوينز، ترجمة الدكتور محمد العناني (دار جرير – عمّان – ط1 – 2009م).
- مبادئ علم الأصوات العام، لديفيد أبركرومبي، ترجمة الدكتور محمد فتيح (القاهرة – مطبعة المدينة – ط1 – 1988م).
- مدخل إلى اللسانيات، تأليف برتيل مالبرج، ترجمة السيد عبد الظاهر (المركز القومي للترجمة – القاهرة – ط1 – 2010م).
- مدخل لفهم اللسانيات، لروبير مارتان، ترجمة د. عبد القادر المهيري (المنظمة العربية للترجمة – بيروت – ط1 – 2007م).
- معجم الأسلوبيات، لكاتي وايلز، ترجمة خالد الأشهب (المنظمة العربية للترجمة – بيروت– ط1 – 2014م).
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، لمجدي وهبة وكامل المهندس (مكتبة لبنان – بيروت –ط2 – 1984م).
- معجم المصطلحات اللغوية (إنجليزي – عربي) للدكتور رمزي بعلبكي (دار العلم للملايين – ط1 – 1990م).
- معرفة اللغة، تأليف جورج يول، ترجمة د. محمود فراج عبد الحميد (دار الوفاء لدنيا لطباعة والنشر – الإسكندرية – 1999م).
- النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، لماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، ترجمة محمد الراضي (المنظمة العربية للترجمة – بيروت – ط1 – 2012م).

- هسهسة اللغة، لرولان بارت، ترجمة الدكتور منذر عياشي (دار نينوى – دمشق – ط1 – 2015م).
- ثانيًا – الدوريات:
- مجلة كلية الآداب، جامعة طنطا، العدد –29 يناير 2016م، بحث للدكتور عبد السلام حامد، بعنوان: الاستماع وأثره في تعليم العربية.